الثنائية والفردية في التاريخ السوداني

تبرز للمتأمل في التاريخ السوداني ، في كثير من مناحيه ، ظاهرة الثنائية والفردية في التشكل التاريخي ، على المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية ، ويواكب ذلك انعدام المؤسسية وهذه الفرضية ليست قطعية ولكن تشير إلي الظاهرة وهذه الظاهرة ليست جديدة ولكنها قديمة في حقب التاريخ السوداني ، كما أن عماد معظم الممالك السودانية كان القوة العسكرية ، فدولة الفونج قامت على تحالف شعبي عسكري ، كان قوامه القوة العسكرية للفونج والعبدلاب واستخدام العنف مما أدي للإطاحة بدولة علوة والممالك النوبية ، وتمثلت القيادة في ثنائية تاريخية وثقافية ، حيث مثل القيادة السياسية عمارة دنقس وعبدالله جماع واعقب ذلك ثنائية ثقافية مثلها ، الشيخ عجيب المانجلك وادريس ود الأرباب ، وظلت دولة الفونج تعتمد علي ثنائية الفونج والعبدلاب وسنار وقري ، ولما طغى نفوذ الفونج وأضمحل دور العبدلاب تأكلت الدولة وأصبحت فريسة سهلة أمام جيش الدول التركية المتمصرة .

وفي إطار الدولة التركية ، بدأت تبرز نواة الثنائية بين الأجنبي والأهلي ، والتركي والسوداني ، إلا أن اكتملت مطلوبات هذه الثنائية في الثورة المهدية والتي في إطارها برزت ثنائية أولاد البحر والغرب أو الأشراف وانصار الخليفة من البقارة وقبائل السودان والأشراف قالب لفظي نحته الدناقلة " أولاد البحر ليعطوا أنفسهم مزية وقيمة إضافية من غيرهم من السودانيين كما أن هذه الثنائية عبرت عن ثنائية المكون الداخلي للمهدية – أي المهدي وخليفته.

وفي إطار هذه الثنائية اشتد الاستقطاب ، مما أدي إلي استنصار طائفة من الشماليين والقبائل المتظلمة من سياسات الخليفة عبدالله بالإدارة ، الاستعمارية الإنجليزية في مصر ، مما فتح الباب امام ثنائية جديدة ، عرفت باسم الحكم الثنائي الإنجليزي ، المصري .

وتم ضرب هذه الثنائية في عام 1924 حينما سعي الإنجليزي للإنفراد بالسودان ولكن ملأ الأهالي من السودانيين الفراغ الذي خلفه المصريون ، فأصبحت هناك ثنائية الوطني والمستعمر والتعليم الوطني والكنسي وبروز ثنائية السيد / على الميرغني والسيد عبدالرحمن المهدي وانعكست هذه الثنائية على أول تشكل وطني ممثل في مؤتمر الخريجين الذين انقسموا الأنصار السيد بن ممثل في عبدالله السيد الفيل ومحمد على شوقي أي الفيلست والشوقستى ، نواة ثنائية الأحزاب والاتحادية.

وفي إطار الحركة السياسية السودانية ، برزت ثنائية الشيوعية والإسلامية والدستور الإسلامي والعلماني والقوة التقليدية والحديثة ومدرسة جامعة الخرطوم ومدرسة الكلية الحربية والحكم الديمقراطية والعسكري وفي إطار هذه الثنائية العامة كانت هناك ثنائيات خاصة اسماعيل الأزهري وعبدالله خليل ، الإمام الهادي المهدي والغمام الصادق والترابي وعبدالخالق وما يمثل جعفر نميري وما يمثله هاشم العطاء – انتهاء ثنائية الجنوب والشمال – وبرز المحدد الجنوبي في الانفصاليين والوحدويين – وكان أهم رموز الانفصاليين جوزيف ادهو واقري جادين والأب سارتينو لاهوري وتجسد حلم الوحدويين في جون قرنق وفي ثنائيات التعليم مدرسة المبشر ومعهد وطني وتعليم ديني ومدني وقضاء شرعي وقضاء مدني .

ولم تختف هذه الثنائية في إطار تجربة ما عرف بالإنقاذ، عسكريين ومدنيين وظاهر وباطن والبشير والترابي والمؤتمر الوطني والشعبي والحركة الإسلامية جناح البشير والإسلامية تحت عباءة الترابي وثنائية الحركة الشعبية قطاع الشمال والمؤتمر الوطني ثم القوي الثورية والقوي المؤيدة للنظام وثنائية الجيش الوطني وقوات الدعم السريع مع ثنائية ثوار دارفور وثوار الجبال وفي إطار كل هذه الثنائية اختفت المؤسسة ، حيث الثقافة السودانية لا تعرف المؤسسية ، لكنها تعرف ثقافة السجادة حيث هناك ثنائية الشيخ والمريدين ويفني المريد في شيخه : وهناك شيخ القبيلة حيث تفنى القبيلة في اميرها وحتى الأحزاب السياسية تأثرت بهذه الثقافة ، حيث الحزب هو أميره ، والشركة مديرها. والدولة رئيسها، وما تبقى سوي مسرح للإخراج .هياكل فارغة تملأها إشارات الشيخ وتصريحات الزعيم ولذلك تآكلت مؤسسات وهياكل الدولة، نسبة لغياب الإدارة ومطلوبات الشورى، حتى أكلتنا الحرب ودمرت الريف السوداني دارفور وجبال النوبة انفصل من قبل الجنوب ، أما عن مشروع السودان الحديث الذي كان نواته السكك الحديدية ، والخدمة العامة وقوات دفاع السودان ومشروع الجزيرة والخطوط الجوية والبحرية والنقل النهري فحدث ولا حرج مع عسكرة السياسة وتسيس العسكرية .

ويبقى التحدي لتجاوز الفردانية والثنائية والولوج لآفاق المؤسسية متى وكيف .

والسلام .

أ.د. حسن مكي محمد أحمد